



العاشق المقامر والزوجة المنقذة

عنه. وفي نهاية الرسالة يعتذر لها عن جراء تعذيبه لها، ويشرح لها معاناته مع عادة لعب الروليت، وكيف أنه يجاهد كثيرا كي لا يعود إلى طاولة الروليت، لكن كل مقاومته تنهار، ويفقد ما لديه.

يتكرر الاعتذار والأسف، بل وتطلب السماح منها على كل "العذابات والانفعالات التي سببها لها"، ثم كالعادة يذكر لها ندمه على عدم أخذها معه، ويخبرها بأنه يخشى الحديث عن المستقبل لأنه بالنسبة إليه مجهول، ويعول على أن "الرب سينقذنا على أي حال". كما تكشف الرسائل حالة الضعف التي يبدو عليها دوستويفسكي، سواء بسبب إيمانه للقمار، ورغبته التي لا يستطيع مقاومتها للعب، مع معرفته بالخسارة، وأيضاً بسبب ضعفه أمام ناشريه، واستكائه لابتزازاتهم له، والأهم ضعفه أمام نفسه وخشيته أن يظهر أمام الآخرين بمظهر السفيه الدنيء، لذا يشدد عليها بالأطلاع أحداً من أقرابها برسائليهما. وفي الرسائل يشتكي لينكولاى ستراخوف من حالة الكتابة تحت ضغط الموعد، لذا يتمنى أن يكون حراً مثل "تولستوي وتورغينيف وغونتنساروف" غير مقيد بموعدهم بمفروض عليه.

وعندما يعلم بمرضها وهو في بروسيا، يعتره الحزن، لدرجة أنه يؤنبها، ويشاطرها المأثراً قائلاً "فؤادي يتألم لك، فكرت هنا في كل معاناتك في عملي...". وفي غمرة ألمه يعترف بحبه لها قائلاً "لقد وقعت في غرامك، يا أنيا، لدرجة لم تنق في ذهني أي فكرة سواك".

وفي رسالته إلى صوفيا إيفانوفنا يأتي ذكر أنسا، وحياتهما معا فديقول "أنا مع أنا جرجوريفنا في عزلة رهيبية". تظهر الرسائل ثقة دوستويفسكي في زوجته بل يعتبرها موضع ثقة مطلقة؛ فيحكي لها تفاصيل كتاباته وعلاقاته بالناشريين، وأيضاً شغفه أمام المقامرة، وهروبه من الدائنين، وفي نفس الوقت يظهر خوفه عليهم (هي وأبنائهم) وسعيه لتأمين حياة سعيدة قدر استطاعته لهم.

تعدو الرسائل إليها بمخاطبة يوميات له، يصف فيها كل ما يصادفه في يومه، فيرسل لها رسالة عندما يصل مدينة إيمس في برلين، يبثها شعوره بالملل الذي تسرب إليه من المدينة، كما يعدها بأنه سوف يتبع رسائلها إلى المقامرات والمسارح، والتغيرات التي حلت على سكانها بعدما صارت المدينة قبلة للآلورويين، إذ تم تحويل منازلهم إلى فنادق، دوما يطلب منها في ختام رسالته بأن تهتم بنفسها وتحافظ عليها من المرض.

ثم ترد باسم أنا سنيتيكا قبل الزواج. محور الرسالة يكشف عن طبيعة الثقة التي أولاها لها، فيتحدث عن طبيعة خلافاته مع مجلة البشير الروسي، وكيف انتهى إلى توليف أوضاعه، ثم يعدها في نهاية الرسالة بما ينتظرهما من مصير "فالنقود متوفرة، وسنعتقد القرآن بأسرع ما يمكن" وبعدها يخبرها بأنه سيلتحق بها في بطرسبورغ، وينهي رسالته بتمني أن يعانقها ويقبلها فمما يقول "أقبل يدك الرقيقين وقدميك اللتين لا تسمحن لي بقبيلتهما".

رسائل دوستويفسكي إلى زوجته بمثابة يوميات له، يصف فيها كل ما يصادفه ويحكي فيها عن تفاصيله الخفية

ويقول لها بعد توقيعه الرسالة بالمخلص زوجك السعيد "يستحيل الزواج؛ أحبيني يا أنا وأنا أحبك إلى الأبد"، وأحياناً يوقع بالمخلص لك بكل شغاف الفؤاد. ومرات كثيرة يردد هذه الصيغة التي تكشف عن محبته له، هكذا "أقبلك حتى آخر ذرة، وخصوصاً قدميك الرائعتين. أنت سيدتي الأمانة، أنا لا أستحقك، لكنني أوله زوجتي الحبيبة، ولن أنسازل عنها لأحد، ومع أنني لا أستحقها".

ثم تبدأ الرسائل اللاحقة في إظهار الحميمة بينهما فيخطبها في رسالة من هامبروج بتاريخ 5 مايو 1867، هكذا "مرحباً يا ملاكي الحبيب، أعانك وأقبلك بحرارة، طول الطريق كنت أفكر فيك"، ويكتب لها بعد وصوله مباشرة، مظهرها افتقاده لها، وندمه على أنه تركها وحيدة. ومن شدة إظهار ولعه لها يقول "أدرت أنني لا أستحق مثل هذا الملاك المكتمل الشفاف، الهادئ الوادع الرائع العفيف الذي يثق بي"، ويعتبرها عطية من الله كي يكفر بها عن خطاياها الشنيعة.

يتابع رسائله إليها وأصفاً متاعب الرحلة والبرد الذي تعرض له، ووحشته وافتقاده إليها. كما يحكي لها مقارناته، وخسارته لبعض النقود، وفي إحدى رسائله بتاريخ 9 مايو يصف لها حزنه الشديد عندما ذهب إلى مكتب البريد دون أن يجد رسالته. يقول له صراحة "أنا لم أعتب يوماً، أبداً، لهذا الحد (يقصد عدم عثوره على رسالته في مكتب البريد)، ولم أرتعب كما حصل لي يوم أمس". ويطلب منها بعدما خسرت نقوده في المقامرة، أن ترسل له النقود كي يجعل بالرحيل من هذا المكان، كما أوصاهم بالاطلاع أحداً على رسالته كي لا يرى هذه الصورة المزرية

زوجها المعتلة بالرعاية التامة"، وأن تضعه حسب تعبيره "على أكف الراحة كما لو كان طفلاً، كما أظهرت كثيراً من اللين والتساهل في معاملتها إياه ممزوجاً باللباقة المهذبة، وأستطيع أن أقول بكل ثقة إن فيودور ميخائيلوفيتش وأسرتة، وعلى نفس الدرجة أيضاً كثيراً من المعجبين به، مدينون جميعاً بعدد من سنوات عمره لها".

الموضوع الأساسي لمذكرات أنا "مذكرات زوجة دوستويفسكي" (ترجمتها أنور محمد إبراهيم، المشروع القومي للترجمة القاهرة، 2015) ليس الزوجة وإنما الزوج، فهي تأتي في المرتبة الثانية بعد "رب الأسرة والزوج الذي يهيم عشقا برقيقة عمره الأب الروم"، هي في الظل تقوم بدور الزوجة المتواضعة كاتبة السيرة، تكتب عن أحزانه أكثر مما تكتب عن أحزانها.

أصل هذه المذكرات هو اليوميات الغامضة، والتي قال عنها دوستويفسكي "أدفع أغلى ما عندي لأعرف يا أنتيشكا (لقبها عنده) ما الذي تعنيه بصنانيرك هذه التي تخطينها: لعلك تشتميني"، وأحدث أنا مع زوجها، لكن دون أن تنقل كل ما في يومياتها إلى المذكرات، وإنما اعتمدت على الانتقاء، إزاحة ما رآته تافها، حافظت أنا في مذكراتها على طبيعة مشاعرهما، وما تكنه من حب ونفور لبعض الشخصيات، وهذا واضح في علاقتهما بباين زوجة دوستويفسكي السابقة. كما تسرد الكاتبة عن رحلاته، وعلاقاته باصدقائه ومراسلاتهم، وعن اللقاء الذي ظل مرتقبا بين تولستوي ودوستويفسكي.

عشق بلا حدود

أما الرسائل التي جاءت في جزأين (وقد ترجمها خيرى الضامن، دار سؤال) فيخص دوستويفسكي وأنا بالكثير من الرسائل، ويخطبها دوما بعزيمتي وصديقتي المخلصة، وتارة بعزيمتي أنتيشكا، يرد أول مرة اسم أنا جوجوريفنا في رسائل دوستويفسكي، تحديداً في الجزء الثاني في رسالة إلى نيكولاى لوبيموف المحرر التقني لمجلة "البشير الروسي"، في ملحوظة عقب الرسالة، حيث يخبره بأنه استاجر كاتبة اختزال (دون أن يحدد اسمها)،

دوستويفسكي العاشق من زوجة صديقه إلى كاتبته التي أنقذته

وقفة جديدة مع دوستويفسكي ووجهه الآخر الذي تكشفه رسائله

المقامرة، وهو ما حدها لأن يعترف لها "سأظل ما حبيت أنكرك هذا، وفي كل مرة سوف أدعو لك يا ملاكي بالتوفيق، كلا أنا الآن لك كلية، لك تماما، أما قبل ذلك فكان نصفي لمكا لهذا الوهم الملعون". أما هي عند وفاته، ففرضت التسليم بموته، حتى في رسائلها كانت تؤكد على صعوبة تصديق فكرة الغياب فتقول لصديقتها صوفيا أفريكيفا "أعود بذكراتي إلى السنوات السعيدة التي مضت، ولا أستطيع أن أصدق أنها لن تعود ثانية، لا أستطيع أن أسلم بفكرة أنني لن أراه، ولن أستمع إلى صوته مرة أخرى...".

بدأت علاقته بها منذ أن حدث اللقاء الأول بينهما، وإن كانت قرأت له بعض أعماله كمذكرات من بيت الأموات، قبل اللقاء الفعلي الذي حدث عندما تم ترشيحها من قبل أساتذها أولخين (مدرس الاختزال) للتعلم معه كمساعدة في كتابة إحدى رواياته، وما إن حدث اللقاء (في الرابع من أكتوبر 1866) حتى تم التقارب بينهما، وقد أشار إعجابها الشديد، السود الذي سرى بينهما جعله يكشف عن "صورة حزينة ما من صور حياته". وما إن بدأت العمل معه، حتى شعرت بالحزن الثقيل، لما رأت عليه الأيدي في صورة "إنسان تعيس هجره الجميع" وهذا الشعور كان بداية التعاطف العميق والأسنى البالغ عليه.

تسرد أنا عن بداية العلاقة بينهما، وعن حيلته للارتباط بها، وعن الصراحة التي أداها في الحديث معها، بتفاصيل دقيقة عن حياته الشخصية وعن سجنه في قلعة بتروباولوسك، وعن خطبته للكاتبة أنا فاسيليفنا كورفين - كروكوفسكايا، وتراجعها عن الاستمرار في الخطبة بسبب التناقض بين أفكارهما. وبعد انتهاء عملها، طلبها للزواج، وهو ما أشار حفيفة أقرابه (وأقربها بسبب فارق السن بينهما) وخصوصاً زوجة أخيه ميخائيل ميليئا، وابن زوجته الأولى بافل، فقدع أعمالها بعداء شديد وكانها عدوة.

وقد اعترف الكثيرون من معاصري دوستويفسكي بالدور الذي لعبته أنا في حياته، وكيف أنها كانت بمخاطبة المخلص من الأم وعذابات المرض، فإكسستروف وهو صديق لهما كان كثير التردد على بينهما، يقول "استطاعت أنا على وجه التحديد صحة

تمر هذه السنة (نوفمبر 2021) الذكرى الثانية بعد المئة على ميلاد الروائي الروسي فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي (1821 - 1881)، وقد جعلت اليونيسكو من هذه المناسبة احتفالاً كبيراً على مستوى العالم بالرجل، تقديراً لمكانته الأدبية؛ إذ غاص بإبداعه في أعماق النفس البشرية، كاشفاً عن تناقضاتها، وعلى الرغم من معاناته في حياته الشخصية بسبب العوامل التي تكاثرت عليه كالفاقة والعوز والمرض وقبلها الحبس في سجن سيبيريا، إلا أن رسائله (ترجمها خيرى الضامن في جزأين) كشفت عن جانب آخر من شخصيته، وهو العاشق.

تولعت بدوستويفسكي وأرسلت له رسائل الإعجاب والحب، ثم أخذت تعاونه في المجلة التي يصدرها مع أخيه ميخائيل، وعلى الرغم من اختلاف طبيعته مع طبيعتها، إلا أنه يقرر السفر معها، لكن ظروف المجلة يتأخر عنها، فتسافر إلى باريس وهناك لا تضيع الوقت، فترتبط بشباب إسباني غني، ويفشل دوستويفسكي في قطع علاقتها به، فيعود حسيراً، إلا أن الشاب يتركها، فتعود مرة ثانية إلى دوستويفسكي ويسافران معا إلى إيطاليا، ثم جنيف وروما ف نابولي، وتستمر هذه الرحلة ستة أسابيع، لكن ما تلبث أن تنطفي جذوة الحب بينهما وتتحول إلى كره متبادل، فيهجرها ويعود إلى زوجته التي كانت الغيرة قد استبدت بها مع اشتداد المرض عليها.

المنقذة من الألم

التجربة الثالثة كانت بعد وفاة زوجته مارييا، حيث كان في حاجة إلى عامل اختزال أثناء كتابة رواية "المقامر"، فحدث التعارف مع أنا جوجوريفنا (1847 - 1918) التي صارت زوجته وصاحبة الإسهامات في حياته.

علاقة دوستويفسكي بزوجه الثانية كما كشفت رسائله إليها ومذكراتها عنه، علاقة من طراز فريد، فهي كما وصفها "مساعدي المخلصه والسواي" فلم تكن مجرد زوجة بل كانت بالنسبة إليه "شخصية ضرورية: لا غنى عنها".



حب جامح

في رسالة بتاريخ 22 ديسمبر 1856، إلى أخيه ميخائيل، يسرد له فيها تفاصيل علاقته بماريا ومدى حبه لها، وإن كان مره، من قبل، اسمها ولمح إلى علاقته بها، في رسائل سابقة، لكن في هذه المرة يعلن صراحة حبه ورغبته في الزواج بها هكذا "إنني أحب امرأة اسمها مارييا ديمتريفنا عيسايفا"، وفيها (أي الرسالة) يحكي له كل ظروفها منذ أن تعرف عليها وما شعر به، ورحيلها مع زوجها، ثم وفاته، وما قام به من رعاية لها ولابنتها، وهو ما أوقعه في ضائقة أخرى وديون تضاعف إلى ديونه، ثم مراسلته لاسرتها.

أثناء زواجه بماريا، تعرف على فتاة جامعية اسمها باولين سوسلوفيا، ابنة رجل غني صاحب مصنع (وإن كان في الأصل قنا من ألقان أسرة تحمل لقب الكونت شيريميتيف) كانت الفتاة صبية غاية في الجمال، وإن كانت مستسلطة الطبع، شديدة الحماس، كما أنها كانت ملحدة تعتنق المذهب الفوضوي، والعقيدة العدمية، تدعو إلى الحب الحر الذي لا يقيد قيود.



محمد فراج النابوي
كاتب مصري

تفيض رسائل فيودور دوستويفسكي محبة وتولها بالمحسوب. فكما يقول مكسيم غوركي "كان قلب الكاتب الروسي ناقوساً للحب، وصوتاً جباراً تسمعه كل القلوب الحية في البلاد". ومن شدة ما عاناه من ويلات الحب، يصوغ فلسفته هكذا "فرحة الحب عظيمة، لكن المعاناة فظيمة، والأفضل للإنسان ألا يحب أبداً". وقد مر دوستويفسكي في حياته بثلاث تجارب عشق، الأولى كانت مع مارييا إيسايفا، وهي كانت حبه الأول الكبير. امرأة مثقفة والدها ديميتري كونستان مدير الجمارك في أستراخان، كانت مارييا متزوجة من معلم شاب اسمه إيسايف مدمن للشراب، بحكم وظيفته كان ينتقل من مكان إلى مكان، حتى استقر الحال بهما (هو وزوجته) في هذه المدينة النائية، وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين دوستويفسكي والمعلم الشاب، إلا أن دوستويفسكي تحول إلى الإعجاب بزوجه الشقية، إذ كان يشعر إزاعها بشقفة كبيرة.

لم يجد بداً إزاء حائل الزوج إلى أن تكون له "حبا خويبا"، لكن الحب استبد به، وتحول إلى هوى جامح، وما إن انتقل الزوج إلى مكان آخر للعمل، حتى تمزق قلب دوستويفسكي للفرار. فأرسل رسالة لها بتاريخ 4 يونيو 1855 يخبرها بما اعتراه من وحشة والألم بسبب فراقها، فيغيبها، حسب عبارته، يتيم هنا، بل صغار الوقت في غيابها "أضبه بالسجن كالفطرة التي اعتقل فيها عام 1849، وعزله عن كل ما هو عزيز"، إلا أن القدر يلعب لعبته، فيموت الزوج، وتأتي الفرصة لدوستويفسكي الذي كان وصيفه إكسندر فرانجل يمدان لها العون وهي وابنها الصغير ثم بعد فترة عرض عليها الزواج، فقبلت مع أنها لم تكن تحبه.

اعترف لها في رسالته بمكانتها وحبه المتين لها، فهو بعيد عنها يشعر "بالكتابة المؤلمة" قائلاً "وها أنا مقتنع يا أنا أنني بعد اثني عشر عاماً لا أحبك فقط، وإنما تتم بك، وأنت سيدتي الوحيدة"، جمعها فن الاختزال الذي كانت تجيده. كما يدين لها دوستويفسكي بوجه خاص بأنها خلصته من سلطان